الأصالة والبحوث اللغوية الحديثة

عبد الرحمن الحاج صالح
رئيس وحدة اللسانيات
جامعة الجزائر

لقد بدأت مفاهيم اللسانيات الحديثة وتصوراتها تروج وتنتشر في البلدان العربية وخاصة بعد أن انتبه الأدباء أنفسهم الى ضرورة التجديد للمنظور التاريخي الذي ساد الدراسات الأدبية منذ بداية هذا القرن ، وبدأ الناس ولا سيما علماء اللغة يتساءلون يومئذ عن جدوى هذه المفاهيم الا أن أكثر هذه المفاهيم لم تعرف بعد على حقيقتها بل لم يطلع أكثر الناس بعد على تطورها وكثرة الآراء والمذاهب التي أثارتها وما الذي فيها قد أنزوى أو زال لتغلب مذهب جديد عليها وما الذي ثبت بعد التجدد . ثم أهم سؤال يطرح إزاء هذا الأمر الطارىء هو ما شأن العلوم اللغوية العربية التي آلت الينا من أسلافنا بالاضافة إلى هذه الأفكار والتصورات التي أتتنا من الغرب في الآونة الأخيرة ؟ وهل تأثيرها على المثقفين العرب يعتبر مسا بالأصالة ؟ هذه التساؤلات كلها حاصلة بالفعل إلا أن المشكل قد طرح فيها بكيفية جد سطحية وبدون مراعاة لكل ما تقتضيه الموضوعية العلمية .

فأما الأصالة فاننا لا نشاطر نظرة الكثير من المثقفين عندما يقابلون هذا المفهوم بالحداثة أو المعاصرة فان الأصالة تقابل في الحقيقة التقليد أيا كان المقلّد (بفتح اللام) المحتذى به سواء كان العلماء العرب القدامى أم العلماءالغربيين اذ الأصيل هو الذي لا يكون نسخة لغيره . فكأن هؤلاء المثقفين بجعلهم الأصالة في مقابل المعاصرة لا يتصورون هذه الأصالة إلا بالرجوع إلى القديم . فالأصيل في الواقع هو المبدع الذي يأتي بشيء جديد لم يسبق إليه مهما كان الزمان الذي يعيش فيه . والأصالة في زماننا هذا وعلى هذا الأساس هي الامتناع من تقليد الغربيين خاصة هذا ولا أقصد من لفظ التقليد أكثر مما قصده علماؤنا قديما فهو اتباع الإنسان لغيره فيما يقول أو

يفعل معتقدا الحقية فيه من غير نظر وتأمّل في الدليل (من كتاب التعريفات للشريف الجرجاني) . أو بعبارة أخرى هو اتخاذ أقوال الغير كحقائق لا تقبل الجدال وعدم الإتيان بأي ابتكار . وهذا لا يعني أن الإنسان مجبر على ابتكار جميع ما عنده . هيهات ! فإن هذا يستحيل كما يستحيل أن يعيش الإنسان بالاعتماد على ما يصنعه هو وحده أو أن يرقى به العلم بدون أن يراعي ما ابتكره الآخرون ، والعلم بهذا الاعتبار هو أحوج الأشياء إلى التفاعل والتداخل والأخذ بما يأتي به الآخرون ، إلا أن الأصالة في هذا الأخذ تكمن في عدم الاطمئنان مقدما وقبل النظر إلى كل ما يصدر من الغير حتى يقوم الدليل الذي يحمل الانسان بل يجبره على تقبل أقوال غيره .

فهذا هو موقف العالم ذي الأصالة وكنا - وما يزال الكثير منا - يقلد القدامى من علمائهنا ثم جاء منا من يقلد الآن الغربيين فاستبدلوا بذلك تقليداً بتقليد .

ويجدر بنا بهذا الصدد أن ندلي برأينا فيما يقوله اللغويون العرب المحدثون وغير اللغويين وما يقومون به من أبحاث حول التراث العلمي اللغوي العربي وسنربط ذلك بالأصول والمبادىء المنهجية التي يجب أن يخضع لها كل باحث نزيه .

ان الكثير من البحوث التي يجريها الآن اللغويون العرب وكذلك البحوث التي يجرونها على محتوى التراث اللغوي تتصف في نظرنا بهذه الهنات :

1) التبني بدون نظر سابق لما جاءنا من الغرب من الأقوال والمذاهب اللغوية بدعوة أن هذه الأقوال هي آخر ما توصل اليه العلم الحديث وأن الباحثين العرب لم يبلغوا بعد - لقلتهم وقرب عهدهم بالبحث - مستوى الاجتهاد فإن الأفكار التي تصلنا من الغرب في اللغة وظواهرها هي وليدة هذا العصر ثم هي من جنس الأفكار التي تخص علوم الفيزياء والكيمياء والأحياء وغيرها من العلوم التجريبية التي تقدمت في أيامنا التقدم المعروف .

ومن ثم الاعتقاد بأن جميع ما تصوروه من المفاهيم هي حقائق علمية مسلمة من قبل جميع العلماء الغربيين ولا نعني النظريات والأقوال بل بعض التصورات التي روجها اللغويون الغربيون كمفهوم المقطع ومفهوم المصوت القصير والمصوت الطويل وغير ذلك فيعتقد أكثر العرب أن هذه الأشياء هي من أحدث ما حققه العلم في زماننا مع أنه قد ثبت أن أكثرها قد وجد في الحضارة اليونانية وتوارثه الغربيون وهي مجرد تصور ووجهة نظر إذ قد يكون لغير الغربيين تصور ووجهة نظر أخرى غير هذه وقد أثبتت تكنولوجيا اللغة أن المقطع مثلا لا وجود له في الكلام العادي إلا في حالة انعزال المقاطع بعضها من بعض أي في حالة الإفراد ووجود بين وقفتين أما في داخل مدرج الكلام أي تسلسله فلا وجود له إطلاقا . وهذا دليل على أن الكثير من الباحثين العرب لا يلمون بكل ما قاله العلماء الغربيون بما فيهم أصحاب هذه التكنولوجيا . بل قد يوجد منهم من لم يدخل قط مختبرا صوتيا مع اعترافهم بأن الصوتيات علم من العلوم التجريبية .

2) وقد يؤدي هذا القصور وقلة الإلمام بكل ما يجب العلم به الى **التعصب لمذهب غربي واحد** لكون هذا الباحث قد تخرج على يد ذاك العالم الغربي صاحب المذهب المعني به فلا يريد به بديلا ويعتقد أشد الاعتقاد أن كل ما يقوله غيره فهو من سفاسف الكلام وباطله .

فقد رأينا الكثير ممن أوفد إلى فرنسا أو بريطانيا يتتلمذون على أستاذ عرف بمذهب خاص – وقد يكون هذا المذهب السائد الشائع في ذلك الزمان – ثم يرجعون الى بلادهم ويحاولون يومئذ أن يعرفوا أبناء وطنهم هذه الأقوال . وهذا لا بأس فيه بل هو مطلوب من كل من أوفد الى الخارج إلا أن البعض منهم ربما تعلق بهذه الأقوال تعلق الداعي بدعوته ، وقد يرد من الغرب من يدعو إلى شيء آخر وهكذا ينقلون الخلاف إلى البلدان العربية والخطأ في ذلك هو أن ينزل الرأي والتصور والمفهوم منزلة الحقيقة العلمية المجمع عليها . وأن ينزل الافتراض الذي لا يعتمد على دليل تجريبي وعقلي منزلة الفكرة العلمية التي أثبتها الاختبار . وقد يكثر ذلك في العلوم الاجتماعية بصفة عامة بخلاف العلوم الدقيقة والتجريبية التي تجتمع على ايجاد الدليل قبل الخوض في الجدل . هذا وأخطر من كل ذلك هو عدم البحث عن الأسس العلمية بل والتاريخية للمفاهيم والتصورات الرائجة ومن ثم الجهل بأهم شيء يعتمد عليه في اقناع الغير وهو تلك الخلفيات العلمية والتاريخية التي يجب أن يبحث عنها كل باحث ذي شأن ممن لا يتعصب لمذهب من المذاهب .

وعلى هذا الأساس يجب على كل باحث نزيه أن يبحث عن محتوى البنوية (مذهب البنية في اللغة والأدب) ومن أين جاءت وكيف نشأت وما هي الأسس المنهجية والعلمية التي بنيت عليها ولماذا تدعو إلى تبني تلك الأفكار ثم ما هي المذاهب التي ظهرت بعدها وفيماذا ناقضتها ثم فيما هي محقة وغير محقة . ثم ما هي المفاهيم الطارئة فيها وما هي التي تنتمي الى أقوال القدامى وغير ذلك .

3) وصفة سلبية أخرى أيضا هي **تجاهل بعض الباحثين للتراث العلمي العربي في ميدان اللغة** وخصوصا ما اختص به العرب دون غيرهم وما أبدعوه من المفاهيم ولم يوجد ما يقابله في التراث الفكري اليوناني اللاتيني ولا في المذاهب اللغوية الغربية الحديثة . وهذا التجاهل ناتج بالطبع عن جهل أولا لجوهر المفاهيم والتصورات العربية وثانيا للاعتقاد الراسخ عند أكثر المحدثين أن ما ظهر عند العرب من الأفكار ولم يثبته اللغويون الغربيون فلا قيمة علمية له ويعتمدون في ذلك على ما يقوله بعض فلاسفة العلوم مثل أوجوست كونت الفرنسي الذي أدعى في القرن الماضي أن الفكر الإنساني يتطور على خط مستقيم ؛ من الفكر الديني الى الفكر الميتافيزيقي الى الفكر الايجابي أي العلمي في نظره . فلا يتصور الباحث العربي أن يكون العرب منذ أكثر من ألف سنة قد توصلوا الى ما توصل اليه العلم الحديث . وهذا كلام ساذج كل

السذاجة وقد دحضه أكثر من واحد في زماننا وأكبر حجة في ذلك هي أن تطور المستوى الفكري والحضاري للإنسان ليس كما يزعمه متدرجا متسلسلا فقد يرقى هذا المستوى في زمان قصير جدا ثم قد يحصل له استقرار لمدة طويلة بل وتراجع وانحطاط وجمود وكم من فكرة ظهرت في غابر الزمان فلم يلتفت اليها بعد ذلك الناس حتى ظهرت من جديد في عصرنا الحاضر وكذلك كفكرة دوران الأرض حول الشمس وكالدورة الدموية وكاستعمال العفونة لعلاج الجرح والبثور (في البنسلين) وغير ذلك كثير . ثم إن هؤلاء الباحثين لا يعرفون بالضبط ما كان يقصده علماؤنا الأولون من كلمتي الحركة والسكون مثلا وما كانوا يتصورونه عند إطلاقهم للفظ «الحرف» و «الكلمة» و «القياس» و «الباب» وغير ذلك مما يوجد في كتب الأولين والمتأخرين .

وها هنا يتفق هؤلاء المقلدون للغربيين مع المقلدين للشيوخ المتأخرين من النحاة العرب ممن ينتمي الى عهد الانحطاط الفكري العربي . فكلاهما يحمل كلام المبدعين من علمائنا على غير ما يحتمله اذ كلاهما يتأول الألفاظ التي ترد في نصوصهم كما كان يفهمها ويستعملها النحاة المتأخرون ومعنى ذلك أنهم يسقطون معاني هؤلاء على نظريات أولائك النحاة الفطاحل أي تصور ابن مالك ومن جاء بعده على تصور الخليل بن أحمد وسيبويه وأبي علي الفارسي وابن جنى وغيرهم ممن استغلق كلامه على أكثر الناس منذ القرن الخامس الهجري وكان يجب عليهم أن يميزوا بين ما يقوله الخليل وسيبويه وما يقوله من جاء بعده بأربعة قرون واكثر وأبتعد كل البعد عن الروح العلمية والنظريات العميقة التي قد تفوق قيمة النظريات الحديثة . وأخطر من هذا هو التهجم على أولاء كالعلماء المبدعين والحط من قيمة ما قالوه وانتقادهم الانتقاد غير الموضوعي اما بدعوة أن العلم الحديث قد تجاوزهم واما لأن ابن مالك وشراحه لم يذهبوا مذهبهم . فقيل فيهم أن استقراءهم لقوانين العربية ناقص وأن البصريين منهم كانوا تأثروا بمنطق أرسطو ولم يدركوا في الواقع معنى المنطق ولا تفطنوا الى أن منطق علمائنا الأولين غير منطق أرسطو . وقد بينت في أكثر من موضع ، أن منطق أرسطو قد بناه صاحبه على مفهوم الاشتمال (أي اندراج شيء تحت شيء آخر) كمثال الاستدلال الذي أوضحه فورفوريوس : كل انسان فان وسقراط انسان اذن سقراط فان سقراط مندرج تحت جنس الانسان وهذا الأخير مندرج تحت جنس الكائنات الفانية .

أما الاستدلال العربي فهو مبني لا على هذا الاندراج بل على حمل شيء على شيء أو إجرائه عليه ومن ثم إلحاقه به في الحكم لوجود جامع بينهما يستنبطه الباحث بهذا الاجراء . وهذا هو عين الاستدلال في الرياضيات وهذا الفارق بين القياسين اليوناني والعربي هو أساسي ولم يدركه إلا القليلون من الناس (وابن تيمية هو ممن تفهموا جيدا هذا الفارق) .

ولا يمكننا في هذا المكان الضيق أن ندلي بكل ما انفرد به العلماء العرب المبدعون من أفكار ومفاهيم ومناهج وهو كثير ورائع . (سنرى فيما يلي نبذة مما أثبتناه من التحليلات عليها في فهم هؤلاء العلماء) .

1) **لا بد من التأكد الصارم من صحة الخبر أو الرواية** قبل أن نبني عليه نظرية كاملة فقد يتساهل المنظر فيبني جميع أقواله على خبر ورد في كتاب أدب أو كتاب من كتب الطبقات . كفكرة بنا النحو العربي من أوله أو ابتداء من الخليل على المنطق اليوناني وقد يستشهد على ذلك بقول صاحب الأغاني أن الخليل كان يلتقي ويتحدث مع حنين بن اسحاق ناسيا أن الخليل توفي قبل ولادة حنين بعشر سنوات . وكثيرا ما يعتمد المحدثون – على إثر المستشرقين – على كتاب الأغاني على الرغم من أن الاصفهاني ليس ممن يوثق به ولا يعده أحد من العلماء ثقة على الاطلاق (كيف يمكن أن يوثق به وهو المستهتر الماجن) . وكذلك هو الأمر بالنسبة للكثير مما يرويه مؤلفو كتب الطبقات المتأخرون فقد جمعوا الغث والسمين وأدخلوا في كتبهم كل ما سمعوه أو قرأوه بدون أي تمحيص وأي تحرج فكيف يمكن أن يعتمد عليهم في اثبات الوقائع . وكل هذا راجع الى عدم التحرج وعدم التشدد في انتقاء الصحيح وطرح الضعيف والمنكر من الأخبار (وشتان ما بين هؤلاء المؤلفين وبين علماء الحديث الأولين ولا ندري لماذا يعتقد البعض أنه قد يجوز في الأمور العلمية من التسامح ما لا يجوز في الأمور الدينية أو ليس الحرج والكذب واحداً ؟!) .

2) وتتصف الكثير من البحوث أيضا بعيب آخر **وهو عدم الشمولية فيما يخص المراجع** فقد يكتفي الباحث بالعدد القليل من المراجع ويبنى عليها نظرية كاملة بل وقد يكتفي بما هو مطبوع ولا يذكر من المخطوطات إلا القليل . ونقص آخر من هذا القبيل هو أن يتصفح هذه المراجع التصفح السريع والقراءة السطحية وأخطر من ذلك أن يستخرج منها ما يؤيد نظريته ويسكت عما يكذبها ويدحضها . وأول دليل على ذلك هو اعتماد بعض الباحثين على كتاب الانصاف لابن الأنباري للخوض في موضوع الخلاف بين البصريين والكوفيين وتركهم لأهم ما وصلنا من كتب النحاة المعنيين بالأمر أنفسهم وعدم إجراء مقارنة دقيقة مستفيضة لهذه الكتب نفسها وذلك كالمقارنة بين ما يقوله الأخفش الأوسط في كتابه معاني القرآن وكتاب معاني القرآن للفراء فالموضوع واحد وهما متعاصران وقد فعل ذلك أحد الأساتذة الأفاضل واكتشف أن أكثر ما يقوله أبو البركات بن الأنباري – وأكثره من روايات غيره – وما ينسبه الى هذا النحوى أو ذاك غير صحيح أو على الأقل لم يكن بالشكل الذي رواه ووصفه ثم ان هناك عددا كبيرا جدا من المخطوطات لم يرجع إليها الباحثون إلا بعد أن طبعت وذلك كأصول النحو لابن السراج ففيه كلام كثير عن الخلاف البصري الكوفى وتداخل المذهبين في زمانه كما أن فيه من الأدلة القاطعة على أنه هو مع من عاصره كابن كيسان أول من مزج النحو بالمنطق اليوناني قبل الرماني خلافا لما يزعمه ابن الأنباري . فهذا يبين أن الباحث الأصيل هو الذي اذا طرق موضوعا قصد منابعه الأصيلة وأمعن النظر في مظانه الأولى أي فيما تركه المعنى بهذا الموضوع نفسه لا فيما رواه عنه غيره بعد مضى خمسة قرون . هذا وما بالك بمن يحكم على آراء امام النحاة سيبويه من خلال ما

قيل عنه وما رواه مؤلفو الطبقات . وهذا خطير جدا أن يترك الكتاب - وهو ضخم يستطيع الباحث أن يجد فيه بغيته - ويعتمد على الأساطير والخرافات التي حاكها الناس بل المجهولون منهم حول هذا الرجل .

3) ويرتبط هذا بما يجب على الباحث أن يتمسك به دائما وهو الامتناع من ذكر القول إلا من صاحبه مباشرة والاشارة الى مصدر القول بالدقة المتناهية ولا يذكر أبدا هذا القول مرويا على لسان غيره إذا وجد هذا القول في الآثار العلمية التي وصلتنا عن صاحبه وهذا مع الأسف الشديد ما يفعله أكثر الباحثين (أن يذكر كلام الفراء في معاني القرآن عن طريق ابن الأنباري أو كلام الأخفش في كتاب القوافي عن طريق السيوطي أو غيره) .

4) ويجب أيضا أن يتجرد الباحث من كل فكرة أو نظرة مسبقة عندما يحاول أن يفهم مقصود القدامى في نص من نصوصهم وخصوصا أولئك الذين بَعُد عهدُهم عنا وحال دون فهمهم عصور الانحطاط الحالكة الطويلة التي أغلق فيها باب الاجتهاد وجمدت فيها الأفكار بل زاغت عما كانت عليه وصارت أفكارا وتصورات غير تلك التي أبدعها علماؤنا الأولون . ثم الذي زاد الطين بلة أن الباحث قد يكون قد تأثر بما يقوله بعض المستشرقين غير المنصفين بالنسبة الى هؤلاء العلماء وما يقولونه فيقرأ النص من نصوصهم وعلى عينيه نظارات أولئك المستشرقين فلا يرى في سيبويه إلا الرجل الفارسي الذي تأثر بمنطق اليونان الذي كان يدرس في جند يسبور وينكر أن يكون أبو الأسود أو أتباعه ممن ساهم في وضع النحو مع اعترافه واعتراف غيره أنهم أول من نقط المصحف وهذا تناقض صارخ : فكيف يمكن أن يوضع النقط الذي يميز بين الرفع والنصب والجر وبالتالي بين الفاعل والمفعول والمضاف إليه دون أي وعي وأي شعور ولو بسيط بهذه المفاهيم النحوية ؟.

ويقول باحث آخر أن كل هذه المفاهيم قد أخذت من النحو السرياني لوجود نفس المصطلحات في هذا النحو . وينسى هذا الباحث أن هذه المصطلحات العربية الأصل لم تظهر عند السريان الا بعد أن ظهرت عند العرب أي في القرن الثالث الهجري وبصفة خاصة عند حنين بن اسحاق (الذي له كتاب في النحو السرياني) .

5) وأهم شيء ينبغي أن يتوخاه الباحث النزيه في فهم مقاصد النحاة الأولين وأغراضهم هو **انتهاج النهج العلمي الصحيح في تحليل النصوص وينحصر** عندنا في شيئين اثنين :

1 - المسح الكامل الشامل للنص المراد تحليله :

2 - الاكتفاء بهذا النص في التحليل هو وحده إذا كان طوله يسمح بذلك .

وبني هذا المنهج على هذا المبدأ : وهو أنه «لا يفسر كتاب سيبويه (من بين الكتب) الا

كتاب سيبويه» وهذا يتطلب طريقة خاصة في استخلاص معاني النص والوصول الي المقاصد الحقيقية التي قصدها بالفعل صاحب هذا النص ، وقد أطلقنا عليها اسم : المقايسة الدلالية . فالنص اذا طال بحيث تتكرر فيه نفس الأقوال بألفاظ مختلفة فيمكن حينئذ أن تحمل عباراته بعضها على بعض بشرط أن تكون القرائن المقالية فيها والقرائن الحالية هي هي فاذا ثبت ذلك بدليل قاطع وكانت المقايسة تتناول كل الألفاظ التي حملت بعضها على بعض واستدل القائس على تساوي هذه العبارة بتلك كانت اللفظة أو الألفاظ غير الملبسة (خصوصا إذا تكررت وتعددت) دليلا على ما قصد المؤلف من اللفظة الغامضة المساوية لها على أساس هذه المقايسة .

وهذه الدراسة الدقيقة لا يمكن أن تتم طبعا إلا بالمسح الكامل للنص أي باستقرائه عبارة عبارة واستخراج جميع العبارات التي تتضمن اللفظة المراد تحليلها (أي لجميع سياقاتها) وايضاح معناها الذي قصده المؤلف (أو معانيها) . وهذا التحرج والتحفظ يقتضي عقليا ألا يلجأ الى غير هذا النص الا بعد استخراج هذه المعاني والمقاصد للإستئناس والتأكيد لما توصل إليه القائس المحلل . لأن الطريقة طريقة منطقية لا تسامح فيها ولا تساهل .

ويمكن أن نمثل لذلك بلفظة «الفصاحة» وما يشتق منها فما هو الغرض من الفصاحة عند سيبويه ومن عاصره الى عهد الجاحظ ؟ نبدأ أولا باستقراء الكتاب ومسحه كما قلنا مسحا كاملا حتى نجمع كل السياقات التي وردت فيها هذه المادة بمشتقاتها . فبعد أن يتم لنا ذلك يتضح أن «فصحاء العرب» هم عند سيبويه «الموثوق بعربيتهم» و«الذين ترضى عربيتهم» فالفصاحة ههنا هي الفصاحة اللغوية أي صفة الانسان الذي لم تتغير لغته ويجوز أخذ اللغة منه والاستشهاد بكلامه . ولا يوصف بذلك أي ناطق بالعربية ثم اذا فعلنا ذلك بكتاب البيان والتبيين للجاحظ عثرنا على هذه العبارات : (الجزء الأول صفحة 162 من طبعة ع . هارون) : «جعل الفصاحة واللكنة والخطأ والصواب والاغلاق والابانة والملحون والمعرب ....» ويستدل بما أقامه الجاحظ من الطباق بين هذه الألفاظ أن الفصاحة تقابلها اللكنة والاغلاق واللحن ثم عرفنا بما قاله بعد ذلك أنها تفقد بطول مخالطة السامع للعجم وسماعه للفاسد من الكلام . فالعربي الفصيح في ذلك العهد كمصطلح اصطلح عليه اللغويون هو الشخص الذي لم يتعلم لغته من معلم بل نشأ عليها ولم يتأثر بلغة أخرى ويصح على ذلك أن يستشهد بكلامه . والشرط الوحيد ههنا هو المنشأ اللغوي وعدم التأثر لا العروبة العرقية كما يعتقد الكثير إذ رأينا المنتجع بن نبهان وهو سندي يستشهد بكلامه لأنه سبي صغيرا ونشأ وترعرع في أفصح القبائل العربية ولم يستشهد بكلام بشار بن برد لأن لغته التي نشأ عليها هي الفارسية لا العربية حتى ولو كان من أبلغ الناس وأشعرهم اذ قد لا يخلو كلامه العفوي أن تتغلب عليه سليقته العجمية . والفصاحة اللغوية غير الفصاحة البلاغية فبشار غير فصيح بالمعنى الأول وفصيح بالمعنى الثاني .

والأمثلة بهذا الصدد كثيرة جدا وبهذا يتضح أن تحليل النصوص لا يبنى على البحث عن

معاني الكلمات في المعاجم بل على البحث عن ما قصده بالضبط منها أصحاب هذه النصوص بالرجوع الى ما قالوه هم أنفسهم لا ما قاله غيرهم ، وذلك لأن المعاجم لا يسعها أن تدلي بكل ما يمكن أن تدل عليه المفردات لأن من وراء المعاني الوضعية المقاصد الخاصة ولا سيما المعاني الخاصة بعلم من العلوم أو بنظرية من النظريات .

وبهذه الطريقة التحليلية (التي لم نمثل لها الا بهذه النبذة القليلة لضيق المكان) توصلنا الى اكتشاف مقاصد النحاة الأولين وبالتالي الى النظرية العلمية التي بني عليها النحو العربي الأصيل كله . ولابد قبل أن نتعرض لهذه النظرية ولو بكيفية وجيزة أن نشير أن اهتمامنا بالعلماء الأولين لا يعني أننا نسلم لهم كل ما قالوه والدليل على ذلك أننا وضعنا أوصافهم لمخارج الحروف وصفاتها وكل ما جاء في كتبهم من التعليلات تحت محك الاختبار الآلي في مخبر الصوتيات الالكتروني فجاءت هذه الأوصاف في الغالب موافقة للصواب إلا أن هذا كان يمكن أن لا يتم لو لم نجر على نصوصهم التحليل العلمي الذي سبق أن وصفناه أو بعبارة أخرى لو لم نتفهم أغراضهم حق الفهم إذ ما الفائدة في الاختبار إن لم نكن قد أدركنا حقيقة كل ما قصدوه دون أن نزيد على ذلك ما لم يقولوه أو ننقص منه شيئا هاما قد يكون هو الفكرة الأساسية . ثم اننا وجدنا فيما يجريه مهندسونا في معهدنا وغيرهم في المعاهد العلمية من البحوث في الاشارة الصوتية ما يثبت الكثير من المفاهيم العربية الأصيلة من تلك التي لا يوجد لها مقابل في الحضارات الأخرى كالحركة والسكون وحرف المد وقد نفوا كما سبق أن قلناه وجود المقطع إلا بشرط كما نفوا أن يكون لمفهوم الفونيم أي فائدة في التركيب الاصطناعي للكلام وهو من أبسط الأفكار ويريد بعضهم أن يجعلوه من أعمق ما أحدثته العلوم الحديثة وهذا عجيب !

أما فيما يخص النظرية الخليلية وسميناها هكذا بالتغليب لأن الخليل رحمه الله وإن كان هو العماد فيها إلا أنه قد أخذ كثيرا عن شيوخه ثم إن سيبويه لم يكن من المقلدين أبدا بل أثرى هذه النظرية هو ومن جاء بعده كالاخفش والمازني ولا سيما مدرسة ابن السراج : مثل أبي على والرماني والسيرافي والزجاجي ثم ابن جني وبعدهم بكثير الرضى الاستراباني (من أرصن العلماء وأكثره أصالة وهو شاذ في زمانه) .

إن الخليل وسيبويه لا ينطلقان في تحليلهما للكلام من أي افتراض بل من الواقع المحسوس ثم إنهما لا يقصدان من هذا التحليل الوصول الى الوحدات أي العناصر التي يتألف منها اللسان وحصرها ثم إظهار نظام التقابل الذي تنتمي إليه فكأن اللسان في هذا التصور هو مجرد آلة وكأن غرض المحلل ينحصر فقط في تفكيك عناصرها وبيان تقابلها بعضها إزاء بعض ، فالنحاة العرب لا ينظرون الى اللسان في ذاته بل ينظرون أيضاً الى تصرف الناطق بمبانيه وتفريعه فيه الفروع من الأصول فاللسان لا يهمهم بقدر ما يهمهم ما يفعل به مستعمله وكيف يتوصل الى أن يعبر بالمتناهي من الألفاظ عن اللامتناهي من المعاني كما يقول اللغوي الأمريكي تشومسكي . فأما

منطلق التحليل عندهم فهو الانفصال والابتداء ثم مفهوم التمكن . فانهم حاولوا أن يحصروا كل ما يمكن أن ينفرد بنفسه في الكلام وبدأوا بما لا يمكن أن ينجل الى ما هو تحته دون أن يتلاشى كوحدة دالة مستقلة ووحدة مفيدة في نفس الوقت . فانطلقوا من قطعة مثل «كتاب» فان مثل هذه القطعة يمكن أن تكون كلاماً مفيداً في جواب «ما في يدك ؟» مثلا ولا يمكن أن ينحل الى ما هو بمنزلتها إلا أنها يمكن أن تتصرف بزيادة كل الزوائد الممكنة يميناً وشمالاً مثل «الكتاب» و«كتاب مفيد» وكل واحدة من هذه العبارات – سماها ابن يعيش والرضى باللفظة – هي بمنزلة «اسم واحد» أو «كلمة مفردة» وهو تعبير سيبويه . وبتصرف هذا الأصل الذي هو «كتاب» وبتلك الزيادة يحصل المحلل على ما يسميه النحاة بالمثال أو الحد الى أن يفرع عليه الناطق بدون ما شعور كل العبارات التي تدخل في جنس الاسم . ويكتشف بذلك الباحث موضع كل عنصر في داخل الحد ومن ثم وظيفة كل عنصر . وهذا التحليل يجريه النحاة أيضا على القبيل الآخر الذي هو الفعل وله ثلاثة حدود . فالحد عند النحاة هو حد إجرائي تفريعي وليس حدّا بالجنس والفصل ، ولكل مستوى من المستويات حدود خاصة به . ففي مستوى الكلمة – التي هي عنصر من حد الإسم والفعل – حدود من نوع آخر قد مثلها النحاة بما سموه بالبناء أو الزنة باللجوء الى الرموز الثلاثة الفاء والعين واللام . أما في مستوى اللفظة والكلمة فالحدود هي أيضاً من نوع آخر وعناصرها هي أكثر تجرداً مما تحتها وقد بناها النحاة على مفهوم العامل و(العمل) وهو مفهوم قد نفر منه المحدثون لأنه لا يوجد ما يقابله في اللسانيات البنوية الحديثة واعتقدوا أنه مفهوم ميتافيزيقي وهذا لعدم فهمهم لمقصود النحاة الأولين ولاعتمادهم على ما قاله ابن مضاء مع عدم انتباههم الى أن ابن مضاء هو النحوي الوحيد من بين ما يفوق ألفي نحوي (منذ ظهور النحو) الذي دعا الى التمسك بظاهر اللفظ ونفي التقدير والقياس ورده هو رد على الجانب الفلسفي الذي طغى على بعض النحاة – بعد سيبويه – ممن اشتغل بعلم الكلام وقد رد عليهم ممثل المدرسة الخليلية الكبير وهو ابن جني في كتابه الخصائص (في تسلسل العلل مثلا) .

هذا ولا يمكن في هذه العجالة أن نتعرض لكل ما اختص به العرب دون غيرهم . فهذا موضع واسع قد كتبنا فيه كتاباً بالفرنسية وقد بدأنا باعادة كتابته بالعربية وعنوان الجزء الأول منه هو «منطق العرب في العلوم الاجتماعية» . ونأمل أن يخرج في وقت قريب إن شاء الله .